

اللغة الشعرية وفلسفة التجريب عند عثمان لوصيف

مقطع من قصيدة مكاشفات في مشهد الموت

The Poetic Language and Philosophy of Experimentation in Othman Loucif's Work. A Passage from the Poem "Confessions in the Scene of Death"

1 ط.د. حكيم بوذينة*

جامعة الشلف، (الجزائر)

hakimboudina@gmail.com

2 أ.د. صليحة بردي

جامعة خميس مليانة، (الجزائر)

salihaberdi@gail.com

تاريخ الارسال 2025-06-10 تاريخ القبول 2025-08-13 تاريخ النشر 2025-09-16

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى تحليل النص الشعري من منظور تجريبي؛ حيث يتم التركيز على العناصر التي تعكس روح التجريب في اللغة، والبنية، والمعاني. ويعتمد النص على استخدام الرموز، وظاهرة الغموض، والتلاعب بالزمن لإنشاء تجربة قرائية غنية ومعقدة.

كما يعالج مواضيع عميقة؛ مثل الخراب، والزمن، والطبيعة، والموت، والبحث عن الحقيقة. وبواسطة تحليل الصور الشعرية، والأسئلة الفلسفية، والعلاقة بين الإنسان والكون، يتضح أن النص يعكس رحلة بحث مستمرة عن المعنى والحقيقة. **الكلمات المتاحية:** التجريب، الرمزية، الغموض، الحقيقة، الإنسان والكون.

Abstract:

This research aims to analyze the poetic text from an experimental perspective, focusing on the elements that reflect the spirit of experimentation in language, structure, and meaning. The text relies on the use of symbols, ambiguity, and temporal manipulation to create a rich and complex reading experience.

It addresses deep themes such as ruin, time, nature, death, and the search for truth. Through the analysis of poetic imagery, philosophical questions, and the relationship between humanity and the cosmos, it becomes clear that the text represents a continuous journey of seeking meaning and truth.

Keywords: Experimentation; Symbolism; Ambiguity; Truth; Humanity and universe.

المقال:

1. مقدمة:

في عالم الشعر المعاصر، يظهر التجريب كأداة أساسية لاستكشاف الحدود الجديدة للتعبيرين الفني والأدبي. والنص الذي نقدمه في هذا البحث، المقطع الأول من القصيدة الديوان **مكاشفات في مشهد الموت** للشاعر الجزائري عثمان لوصيف - رحمه الله تعالى -؛ الذي يُعد أحد أبرز الأصوات الشعرية التي تميزت بالتجريب اللغوي والأسلوبي في الشعر العربي الحديث. وقد ظهر ذلك جلياً في نصوصه؛ حيث استطاع أن يعيد تعريف حدود اللغة الشعرية عبر استخدام رمزي عميق، وصور شعرية غير تقليدية بأسلوب حديث يمزج بين الرمزية والفكرة الفلسفية. تمحورت أعمال الشاعر حول مواضيع الخراب، والزمن، والكون والإنسان في علاقته بالعالم من حوله، والطبيعة، والبحث عن الحقيقة الإنسانية، مما يجعلها مادة خصبة لدراسة فلسفة التجريب في الشعر الذي يجمع بين اللغة الرمزية، والصور الغامضة، والأسئلة الفلسفية العميقة التي تدعو للتأمل والتفكير، وكذلك استخدام لغة غير تقليدية، وتوظيف بناء شعري مبتكر.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى استكشاف العناصر التجريبية في النص الشعري لدى عثمان لوصيف، سواء من حيث البناء اللغوي أو المعاني. وسنقوم بتحليل العناصر الشعرية المختلفة؛ مثل: الإيقاع، والألفاظ، والمعاني، والصور الشعرية، والرموز والدلالات، والعاطفة، كما سنناقش اللغة الصوفية برموزها وغموضها، وأخيراً فلسفة التجريب في النص.

2. تحليل العناصر الشعرية:

1.2 الإيقاع:

يعدّ الإيقاع من العناصر الفنية الأساسية التي تتحقق بها شعرية الشعر، انطلاقاً من "اجتماع أزمنة عديدة مرهونة بنظام معين، وبنسب متفاوتة"¹، لذا يمكن القول أنه: "تناظر زمني يقابله في الطبيعة توقف الحركة أمام حاجز، ثم استئنافها، ويقوم جماله على لذة انتظار ما نستبق حدوثه"².

إن النص الشعري موضوع دراستنا عبارة عن مقطع مكوّن من تسع وخمسين سطراً شعرياً، من قصيدة ديوانية تتألف من ثمانية عشر مقطعا مرقما غير معنون، ويحمل إيقاعاً حراً؛ حيث لا يتبع قواري أو تفعيلات منتظمة كتلك الموجودة في الشعر العمودي التقليدي، فالإيقاع الحر يعتمد على سلاسة الكلمات والجمل التي تعبّر عن المشاعر بشكل عفوي ومباشر، ونلاحظ أن الجمل الطويلة والمتوسطة استخدمت لإنشاء نوع من التدفق الموسيقي الذي يعكس حالة الحزن العميق، والأسى المستمر.

وقد مزج الشاعر بين تفعيلات بحري الطويل والمتقارب، وهذا المزج له دلالات نفسية وجمالية عميقة، يرتبط كل منهما بمزاج معين وإيقاع خاص يؤثر على القارئ بطريقة مختلفة؛ فبحر الطويل يتميز بإيقاعه البطيء والمنظم (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن)، وهذا الإيقاع يعطي انطباعاً بالثقل والعمق، يُشعر القارئ بحالة من

الاسترخاء، مما يجعله أكثر قابلية للاستماع والتأمل، يناسب المواقف التي تتطلب التدبر والتفكير؛ مثل الأحزان العميقة، والوصايا، أو الحديث عن مواضيع كونية وفلسفية. أما دلالاته النفسية فتوحي بالحزن العميق ويُستخدم غالبًا للتعبير عن الألم والأسى بشكل راقٍ ومدروس، بإيقاعه البطيء يعكس ثقل المشاعر والأحداث التي يتحدث عنها الشاعر بجدية ووقار.

وبسبب بطء إيقاعه وانتظامه، فإن هذا البحر يُعبر عن الجدية والوقار، مما يجعله مناسباً للأغراض الخطابية أو الشعرية التي تهدف إلى التأثير العاطفي العميق ويشجع القارئ على التأمل والتفكير في المعاني المطروحة، خاصة إذا كانت النصوص تحمل رسالة فلسفية أو اجتماعية، أما بحر المتقارب فيتميز بإيقاعه المتوسط السرعة (مستفعلن فاعلن). وهذا الإيقاع يجعله أكثر حيوية من بحر الطويل، ولكنه أقل سرعة من البحور الأخرى، ويكمن تأثيره النفسي في أنه يخلق شعوراً بالتوازن بين الحزن والفرح، والثبات والحراك. وهذا ما يناسب المواقف التي تحتاج إلى تعبير عاطفي مباشر، ولكن دون أن يكون الإحساس غامراً أو مفرطاً. فالجمع بين الجدية والحيوية هو ما يجعله مناسباً للتعبير عن مشاعر متوازنة؛ مثل الحنين والغرام، أو الأسى المعتدل. ويبدو بحر المتقارب أقرب إلى الحياة اليومية، والتجارب الإنسانية البسيطة.

وفي هذا النص يمكن أن يكون الجمع بين هذين البحرين (إذا كان مقصوداً) محاولة للانتقال بين حالات نفسية مختلفة؛ انتقالاً من الحزن العميق (الطويل) إلى التعبير الأكثر توازناً وحيوية (المتقارب). وهذا التنوع يعزز من تأثير النص، ويمنحه بعداً نفسياً وفلسفياً أكبر. والجدول الآتي يبيّن أثر هذا المزج بين تفعيلتي البحرين:

العنصر	بحر المتقارب	بحر الطويل
الإيقاع	متوسط السرعة، ومتوازن	بطيء، وثقيل، ومنتظم
التأثير النفسي	يُشعر بالتوازن العاطفي، والحنين، والانسجام	يُشعر بالحزن العميق، والتأمل، والثقل
الأغراض المناسبة	الحنين، والغرام، والأسى المعتدل	الأحزان الكبيرة، والوصايا، والفلسفة
الحركة النفسية	متحركة، ومرنة	ثابتة، وجامدة نوعاً ما

2.2 الألفاظ والمعاني:

اللغة المستخدمة في النص غنية ومعقدة، مليئة بالرموز والصور المجازية. فالكلمات تحمل دلالات عميقة، مثل: "جراحات الأرض"، و"الريشة الأخيرة"، و"سحلية"، و"شياطات الأمكنة"، و"كهوف لم تزل تصدى بها

أجنحة لوطاويط انقرضت"، في إشارة إلى مواضيع؛ مثل: الموت، والخراب، والذاكرة، والبحث عن معنى للوجود وسط الفوضى والخراب.

3.2 الصور الشعرية:

يزخر النص بالصور الشعرية التي وظفها الشاعر، خدمة للبناء الأسلوبي، وتوجيها للمقاصد الدلالية للقصيدة، وهي صور متنوعة من حيث المحتوى، كما أنّها مثيرة للتأمل؛ نذكر منها:

● **الصورة الحسية:** وتظهر عبر الاستعارات التي وظفها الشاعر في قوله:

"جراحات الأرض تدخن"

"أصاهر الرمضاء"

"من هنا مرّ بحر"

"الميت يتساقط كالريشة الأخيرة"

"الموت يتشاءب"³.

● **الصورة العاطفية:** وتتمثل في الحزن والبكاء بحرقة على الحالة التي وصل إليها، وقد كشف عنها قائلاً:

"أبكي خراب الساعة"، و"نار تتأجج بداخلي".

● **الصورة الرمزية:** لجأ الشاعر إلى استخدام لغة رمزية موهلة في العمق، للوصول إلى البوح بما يعتريه من اغتراب وضياح؛ نستدل عليه من الملفوظات الآتية:

● **الريشة الأخيرة:** رمز للانكسار الكامل، والوصول إلى النهاية.

● **سحلية:** تمثل الكائن الضعيف الذي يحاول النجاة بالرغم من الظروف القاسية.

● **مشكاة الندى:** رمز للجمال والصفاء الذي أصبح بعيد المنال.

● **الجمال:** ترمز إلى القوة والثبات، لكنها في هذا السياق الشعري تنتظر "صدعاً" كبيراً يغير الواقع.

● **السديم الأغبر:** يعبر عن الغموض والضياع.

قال الشاعر كاشفاً عن حالة الضياع المربكة التي يعانيها الإنسان المعاصر، في صراعه من أجل الوجود، وإثبات الذات:

"من ضييع الصُدفة

ومزق خيوط الفراشة؟

أخترق المسافات الباقية

قال صوت شارد بعيدة هي مشكاة الندى"⁴.

4.2 البناء الفني:

إنّ النص الشعري الذي بين أيدينا حدثي في بنائه؛ حيث لا يتبع شكلاً منتظماً للأبيات أو المقاطع، كما يتميز بتعدد الفقرات القصيرة والمتوسطة الطول، مع استخدام الإيقاع المتغير بين السطور الطويلة والقصيرة، مما يعكس حالة نفسية مضطربة ومشتتة، ويعزّز الشعور بالتوتر والقلق.

5.2 العاطفة:

إنّ العاطفة الرئيسية في النص الشعري تتمثل في الحزن العميق، والأسى على الخراب والضياع. أما الرسالة الشعرية في القصيدة فتدور حول فكرة فقدان الجمال والسلام في العالم، والشعور بالإحباط أمام قسوة الزمن، وهناك أيضاً دعوة للتفكير في الماضي والحاضر، واستشراف المستقبل المجهول.

3. اللغة الصوفية:

تكشف اللغة الصوفية في النص الشعري عبر مواقف تعبيرية متباينة في صيغها؛ إلا أنها تلتف حول دلالة الألم، والانكسار واليأس وغيرها، ويمكن أن نجمل تفاصيل هذه اللغة الخاصة، خصوصية الموقف الفلسفي المتصل بها، في الحالات التعبيرية الآتية:

1.3 التعبير عن الألم وسيلة للوصول إلى الحقيقة:

يعدّ الألم حالة نفسية من أصعب الحالات التي يمكن أن يعيشها الإنسان، وقد استبد به اليأس والحزن تجاه المواقف والتجارب التي تفرضها الحياة، وكذا الاصطدام بالواقع، غير أنها حالة شعرية أيضاً؛ استطاع الشاعر أن يعبر بواسطتها عن موقفه من الواقع وأثره في توجيه شخصية الإنسان.

أ. الآلام كجزء من الرحلة الروحية:

في التأويل الصوفي للنص الشعري، لا يتم النظر إلى الألم بوصفه شعوراً سلبياً، بل كمرحلة ضرورية لتحقيق الفهم العميق لحقيقة الذات الإلهية. وقد عكست الأسطر الشعرية هذا المفهوم وفق صور متعددة؛ عبر عنها الشاعر بالقول:

"جراحات الأرض تدخن"، و"الغابات كلها تنوح بالحروقات"...

قدّم الشاعر "الأرض" و"الغابات" رموزاً للعالم الذي يعاني من الصراع والدمار، وهذه الجروح ليست مجرد دمار مادي، بل هي دعوة للتأمل في السبب الحقيقي لهذا الألم الكبير؛ الذي جعل الشاعر يبكي بحرقه حال الزمان والإنسان؛ قائلاً:

"أبكي خراب الساعة"...

والبكاء ليس علامة دالة على اليأس المطلق في هذا السياق، بل هو جزء من التجربة الروحية التي تجعل الإنسان يتعمق في فهم نفسه، وتحمله على إدراك علاقته بالكون المحيط به؛ وذلك انطلاقاً من مراجعة الذات والواقع معاً.

ب. الألم مصدر للتنوير:

يُظهر الألم قدرته على إحداث تحول داخلي في نفس الشاعر، يدفعه إلى السير قدماً، مهما استعصت الدروب، وزادت مشقة السفر، وتعذرت سبل الوصول إلى ضفاف النجاة، ذلك أن الرغبة في التغيير أهم وأكبر من التفكير في النتائج والمآلات.

قال الشاعر:

"أزحف بين الشقوق الصخرية؛ مثل سحلية أنهكتها الجماعات".

تعكس هذه العبارة شعوراً عميقاً بالضعف والإرهاق، لكنها أيضاً تشير إلى رحلة البحث عن شيء أعمق. والسحلية هنا رمز للحياة التي يكافح من أجلها الإنسان؛ للتغلب على الظروف القاسية، مما يجعلها أكثر حساسية تجاه الحقائق الكامنة.

ج. التحول عبر الألم:

إنَّ الشعور بالألم يؤدي إلى نوع من التطهير الروحي الذي يتيح فرص الوصول إلى الحقيقة؛ هذا ما عبّر عنه الشاعر حين قال:

"أصاهر الرمضاء، فتسلمني أعضائي للقيظ اللافح".

والمصاهرة هنا ترمز إلى عملية التحول بهدف التطهير؛ حيث يتم اختبار الذات في ظروف قاسية للكشف عن الجوهر الحقيقي الكامن فيها.

2.3 الدعوة إلى الانكسار والتواضع:

أ. التواضع كوسيلة للتقرب من الحقيقة:

ترى الصوفية أنَّ التواضع شرط أساسي للوصول إلى الاتحاد مع الكائن الأسمى. وقد عكس النص هذا المفهوم؛ خاصة في قول الشاعر:

"أزحف بين الشقوق الصخرية؛ مثل سحلية أنهكتها الجماعات".

والزحف رمز للتواضع المطلق؛ حيث يتخلى الإنسان عن كبريائه، ويقبل بوضعه الهش أمام القوى الأكبر

منه.

ب. الاعتراف بالضعف:

الاعتراف بالضعف والعجز، جزء لا يتجزأ من الطريق الصوفي؛ خاصة إذا اقترن بالسؤال؛ كما هو الحال في

قول الشاعر:

"هل أرفع راية الرماد، وأعزف للجنانز؟"

يكشف هذا السؤال عن شعور عميق بالعجز أمام الواقع، لكنه أيضاً دعوة للتواضع، وإعادة التفكير في أولويات الحياة، وضرورتها.

ج. التخلي عن السيطرة:

يتضمن النص دعوة إلى التخلي عن أي شكل من أشكال السيطرة أو الغرور في مقابل تحرير الذات من كبريائها الزائف؛ الذي يفقدها جوهرها الحقيقي، قال الشاعر:

"من ضيّع الصُدفة، ومزّق خيوط الفراشة؟"

تشير هذه العبارة إلى ضياع فرص الحياة؛ بسبب فقدان السيطرة على الوضع، وعدم الاستغلال الأمثل للظروف والأحداث، وأن الاعتراف بالضعف خطوة أولى نحو إظهار التواضع.

3.3 البحث عن الاتحاد مع الكائن الأسمى:

أ. دعوة إلى كشف الحجاب:

يعدّ الاتحاد مع الكائن الأسمى؛ من أسمى أهداف الفكر الصوفي، وهو ما عبّر عنه الشاعر بوضوح في هذا السطر الشعري؛ حيث قال:

"مَرَّقِي حجابك أيتها الروح، وانتظري ما سوف تصدع به الجبال!"

تمثل هذه العبارة دعوة مباشرة لكشف الحجاب عن الحقيقة الأبدية، والحجاب هنا يرمز إلى الستار الذي يفصل بين الإنسان والواقع الأسمى.

ب. البحث عن الوحدة:

يعبّر النص الشعري عن رغبة قوية في تحقيق الوحدة مع الكون أو الكائن الأسمى؛ وهو ما كشفت عنه هذه العبارة: "قال صوت شارد، بعيدة هي مشكاة الندى!"

"ومشكاة الندى" رمز للنور أو الحكمة التي تبدو بعيدة، وغير قابلة للوصول. ومع ذلك، فإنّ البحث عنها مستمر، مما يعكس روح التجريب في الوصول إلى الحقيقة.

ج. الاتحاد عبر الألم والضياع:

يتدخل الألم والضياع ليكونا شكلاً من أشكال تحقيق الاتحاد؛ لدى الشاعر؛ حيث قال:

"أتركها، وأمضي في الفراغ لحناً ناشراً!"

والفراغ قد يكون رمزاً للعزلة الروحية التي تدفع الإنسان للبحث عن الاتحاد مع شيء أسمى وأعلى.

3. 4 التعبير عن اليأس كمرحلة في الطريق الصوفي:

أ. اليأس كجزء من الرحلة:

إنّ اليأس في الفكر الصوفي لا يمثّل النهاية، بل هو مرحلة ضرورية في المضي نحو الحقيقة؛ قال الشاعر:

"نار تتأجج بداخلي..."

والنار رمز للصراع الداخلي الذي يؤدي إلى التطهر الروحي لدى الإنسان، وبالرغم من أنّ النار قد تبدو مدمرة للوهلة الأولى، إلا أنها تفتح المجال لإعادة بناء الذات، بعد حرق بقاياها المتأكلة على أعتاب الصراع مع ذاتها، ومع الآخرين.

ب. القبول بالوضع الحالي:

غالباً ما يدفع اليأس بالإنسان إلى قبول واقعه، والبحث عن حلول جديدة؛ حتى وإن لم يكن متأكداً من النتائج التي قد يتوصل إليها، وهذا ما دفع الشاعر إلى التساؤل بشأن ذلك، والقول:

"هل أرفع راية الرماد، وأعزف للجنائز؟"

يعكس هذا السؤال حالة من اليأس، لكنه يحمل في الآن ذاته دعوة ضمنية للتفكير في الخيارات الممكنة والاستعداد لتغيير النهج، وكذلك المنهج.

ج. الانتقال من اليأس إلى الأمل:

واليأس في النص الشعري ليس دائماً سلبياً؛ بل قد يحمل بذور الأمل؛ وهو ما جعل الشاعر يعقد العزم أن يبحر نحو ذاته، وكذلك الحياة؛ مؤكداً ذلك بالقول:

"سأبحر في الجفاف..."

يرمز الجفاف إلى التحديات الكبيرة التي تواجه الشاعر، لكنه لا يتراجع عن فكرة السفر، تعبيرا عن استمرارية الحياة، ورغبته في تحقيق هدف جديد.

5.3 رمزية الكون:

أ. الكون مختبر كبير:

يعتمد النص على الرمزية الكونية لإظهار العلاقة بين الإنسان والكون، وهذا ما أظهره التصوير الفني على مستوى الأسطر الشعرية؛ قال الشاعر:

"ومثل مذهب خارج الفلك اخترق المسافات الباقية، أترصد الرعود وأترقب البروقات..."

والمذهب رمز للكائن المنعزل الذي يتحرك في الكون الواسع. وهي صورة تعكس فكرة أن الإنسان جزء من الكون الكبير، وأنه في سعي دائم لمحاولة فهم قوانينه.

ب. القوى الكونية دليل على العظمة:

تتمثل القوى الكونية في الرعود والبرق التي ترمز إلى العظمة والمجهول، قال الشاعر

"أترصد الرعود وأترقب البروقات"⁵...

والترصد يعكس رغبة الإنسان الجامحة في فهم القوى الكبرى التي تحكم الكون.

ج. الزمن قوة كونية:

يظهر الزمن في النص الشعري وقد تجسّد قوةً كونيةً تعمل على تشكيل الواقع، وإعادة النظر فيه، قال الشاعر:

"عظام نخرتها سوسة الزمن"⁶...

والزمن رمز للتحوّل المستمر الذي تخضع له جميع الموجودات، الأمر الذي جعل الإنسان يدرك حدوده ويسعى لإدراك فهم أعمق للوجود.

د. الكون مرآة للنفس:

تجسّد الإحساس بالكون في النص الشعري حالة نفسية داخلية؛ عبّر الشاعر عنها بواسطة التكثيف اللفظي، تضخيما للمعنى، وتقريبا له في الآن ذاته؛ حيث قال:

"وها أنا أتشمم شياطات الأمكنة ودخانات الجيف"...

و"شياطات الأمكنة" و"دخانات الجيف" رموز للذكريات السيئة، والأحداث المؤلمة التي تشكل العالم الداخلي للإنسان.

إنّ عناصر (الأم، والتواضع، والاتحاد، واليأس، والرمزية الكونية) تعكس روح الصوفية في النص، وتبرز كيف يستخدم الشاعر اللغة الرمزية، والصور الشعرية للكشف عن الحقيقة والمعنى الكامن في الحياة. وتحليل هذه العناصر، كشف النص الشعري عن غناه بالأبعاد الفلسفية والروحية، مما جعله تجربة فنية تستحق القراءة والتأمل.

4. الرمز:

عرّفه ناقد الرمزية الكبير "وليام يورك تندال" (William York Tindall) (1903-1981)، بوصفه "تركيبا لفظيا أساسه الإيحاء عن طريق المشابهة بما لا يمكن تحديده؛ بحيث تتخطى عناصره اللفظية كل حدود التقرير، موحدة بين أمشاج الشعور والفكر"⁷.

وقد ربط "عز الدين إسماعيل" بين رمزية الشعر والتجربة الشعورية الخاصة بالشاعر؛ حيث قال: "الرمز الشعري مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاصا، وليس هناك شيء ما هو في ذاته أهم من أي شيء إلا بالنسبة للنفس وهي في بؤرة التجربة؛ فعندئذ تتفاوت أهمية الأشياء، وقيمتها، ذلك أنّ التجربة — كما قلنا — هي التي تمنح الأشياء أهمية خاصة، وعند استخدام اللغة في الشعر استخداما رمزيا لا تكون هناك كلمة هي أصلح من غيرها لكي تكون رمزا"⁸.

لا شك في أن التفسير الصحيح للتجربة الشعرية خاضع في المقام الأول لتفسيرات التجربة الشعورية؛ كونها الموجه الأول للنص الشعري تحت وصاية الممارسات الرمزية للغة الفنية، وهذا ما يمنح الأشياء والمواقف تصورا مختلفا لدى الشاعر مقارنة بغيره احتكاما لقانون الشعور قبل الاحتكام لقانون اللغة أو الوجود.

1.4 الرموز الطبيعية:

استخدم الشاعر رموزا تتعلق بالطبيعة؛ في إشارة إلى صلة الإنسان بها؛ ولا أدلّ على ذلك من توظيفه ألفاظا مستوحاة من قاموسها؛ نحو قوله: "جراحات الأرض تدخن"، "والغابات كلها تنوح بالحروقات".
تعكس هذه الصور من الناحية النفسية علاقة الإنسان بالطبيعة وفق أسلوب رمزي عميق؛ ذلك أن جملة: "جراحات الأرض" لا تحمل في طياتها مجرد الإشارة إلى الدمار البيئي، بل هي تمثيل للآثار السلبية لسلوك الإنسان على الكوكب. في حين يرمز "الدخان" إلى الآثار المستمرة لهذا الدمار، بينما "النوح" يعكس صوت الطبيعة الذي يعبر عن الألم.

ومن الناحية الفلسفية يمكن النظر إلى هذه الجروح بوصفها رمزا للصراع القائم بين الإنسان والطبيعة؛ حيث تتكشف العلاقة بينهما وقد انزاحت إلى العداء بدلاً من التعاون. وهذا الصراع إنما يعكس حالة من الخراب الأخلاقي والوجودي؛ يمارسها الإنسان بوعي أو غير ذلك، إلى أن أصبح المسؤول الأول عن دمار العالم الذي يعيش فيه.

2.4 الرموز الكونية والفلكية:

وقد استمر الشاعر في توظيف المزيد من الرموز المستوحاة من الطبيعة في إشارة إلى الكون والفلك بهدف تبليغ مقاصد النص الشعري ودلالاته؛ ومن ذلك قوله: "ومثل مذنب خارج الفلك أخترق المسافات الباقية، أترصد الرعود، وأترقب البروقات"

ومن الناحية النفسية فإن المذنب هنا ليس مجرد كائن فلكي، بل هو رمز للكائن المنعزل الذي يتحرك في فضاء واسع ومجهول؛ حيث يعكس هذا الرمز شعور الإنسان بالضيق والتشرد في الكون الواسع، الذي يحاول فهم مكانه فيه والدور المنوط به.

أما من الناحية الفلسفية فإن "المسافات الباقية" تشير إلى الرحلة المستمرة نحو المعرفة أو الحقيقة، بينما "الرعود" و"البروقات" فرموز للقوى الكبرى التي تحكم الكون. وقد تكون مدمرة أو محررة، مما يجعل الإنسان في حالة دائمة من الترقب والانتظار.

3.4 الرموز الإنسانية:

وبما أن النص الشعري مصدره الإنسان ويتطلع لمخاطبته؛ فإن توظيف الشاعر للرموز الإنسانية حاضر بقوة في قصيدته؛ ومن ذلك قوله: "من ضيّع الصُدفة، ومزق خيوط الفراشة؟"

و"الفراشة" في هذا السطر الشعري ترمز للجمال والحرية، وهي تمثل اللحظات الجميلة، وتشير إلى الفرص التي يمكن أن تضيع بسبب الإهمال أو السوء في الاختيار. أما "خيوط الفراشة" فترمز إلى الروابط الهشة التي تربط الإنسان باللحظات الخاصة، والتجارب المميزة.

وتعكس هذه العبارة شعوراً عميقاً بالندم تجاه الفرص الضائعة، والأحداث التي لم يتم استغلالها بشكل جيد، كما أنها تدعو إلى التفكير في أهمية اقتناص اللحظات قبل أن تضيع إلى الأبد.

5. الغموض:

يعدّ الغموض ظاهرة في الشعر العربي المعاصر؛ تتوافق وروح العصر التي أنتجتها؛ وهذا دفع "أدونيس" إلى القول: "إن الشعر صورة عن حياتنا المعاصرة في عبثها وخللها؛ إنه صورة منا لتشققات في الكينونة المعاصرة"⁹، وقد أضاف موضحاً الفرق بين الغموض والإبهام؛ فقال: "الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق، الشعر كذلك نقيض الإبهام الذي يجعل من القصيدة كهفا مغلقاً"¹⁰.

ويتخذ الغموض الفني في النص الشعري عدة تجليات؛ منها ما يتعلق بالممارسات اللغوية، وكذلك التوظيف الجمالي لمختلف الرموز المتعلقة بالموضوع العام للقصيدة وكذا أفكارها الجزئية، وأيضاً بفلسفة المواقف والآراء، وغير ذلك.

1.5 الغموض اللغوي:

قال الشاعر: "من ينتفض الآن في أعماقي ليسأل عن عرش ذهب في الذكرى؟"¹¹

إنّ هذه العبارة مفعمة بالغموض النفسي؛ حيث لا تتضح تماماً هوية المنتفض؛ بالنظر إلى طرح السؤال: "من ينتفض؟"، أو "ماذا يعني عرش ذهب في الذكرى؟". وهذا الغموض يترك المجال أمام القارئ مفتوحاً للتأمل والتفسير الشخصي.

و"الانتفاض" قد يشير إلى استيقاظ الذات الداخلية، أو البحث عن شيء مفقود في الماضي. أما "عرش ذهب" فرمز للسلطة أو المجد، وقد يكون توظيف أسلوب السؤال دعوة لإعادة النظر في أولويات الحياة. ومن حيث الدلالة الفلسفية فإن العبارة تعكس فكرة أن الإنسان في بحث دائم عن شيء مثير للاهتمام أو غير موجود، مما يجعل الحياة رحلة مستمرة للبحث عن المعنى الحقيقي للوجود.

2.5 الغموض الرمزي:

قال الشاعر: "عظام نخرتها سوسة الزمن"

إنّ "سوسة الزمن" ترمز إلى التفتت البطيء الذي يطال كل شيء في الوجود، سواء كان مادياً أو معنوياً. والزمن هنا ليس مجرد قياس تسلسلي للأحداث، بل قوة طبيعية تعمل على تدمير كل شيء ببطء، وتدفعه في اتجاه النهاية المحتومة.

ومن الناحية الفلسفية يمكن القول أنّ هذه العبارة تعكس فكرة أن كل شيء مؤقت، وأن الزمن يعمل كقوة مدمرة لكنه أيضاً يفتح المجال للتجديد والتحول. وهذا التفتت البطيء يدفع الإنسان إلى التفكير في أهمية الاستفادة من الوقت، قبل فوات الأوان.

3.5 الغموض الفلسفي:

ويظهر في قول الشاعر متسائلا: "أهو صمت الأبدية؟"

وتصور العبارة حالة من الاستغراب يمر بها الإنسان وهو بصدد التأمل في فكرة "الأبدية"، التي تمثل تصورا أكبر من الفهم البشري، أما "الصمت" فرمز للغموض المطلق، تجاه عدم القدرة على الإجابة عن أسئلة وجودية كبيرة في حياة الإنسان.

والسؤال في بعده الفلسفي يعبر عن الشعور بالإحباط أمام الكون والحياة؛ حيث يبدو أن هناك كثيرا من الأمور غير المفهومة، في حين ترمز "الأبدية" إلى الحقيقة العليا؛ التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، لكنها تظل بعيدة وصعبة المنال، أما العبارة ككل فتعكس في بعدها النفسي شعورا عميقا بالعزلة والوحدة؛ حيث يشعر الإنسان أنه غير قادر على التواصل مع الواقع الأكبر، أو الكائن الأسمى.

إن هذه العناصر؛ متمثلة في (الرموز الطبيعية، الكونية، الإنسانية، الغموض اللغوي، الرمزي، والفلسفي) تجسد كيفية استخدام الشاعر للغة الرمزية وتوظيف الغموض لإنشاء تجربة شعرية غنية ومعقدة، ومن تحليل هذه العناصر، يظهر النص منجزا شعريا عميقا يعالج مواضيع شائكة؛ مثل: الخراب، والزمن، والطبيعة، والموت، والبحث عن الحقيقة.

6. فلسفة التجريب:

يرى صلاح فضل أن "التجريب قرين الإبداع؛ لأنه يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة، فهو جوهر الإبداع وحقيقته عندما يتجاوز المألوف ويغامر في قلب المستقبل، مما يتطلب الشجاعة والمغامرة، واستهداف المجهول دون التحقق من النجاح"¹².

وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الممارسة الشعرية حالة من التجريب الفني، بغض النظر عن موضوعها، أو أثرها لدى القارئ، فضلا عن اشتغالها الخاص على طرائق وأساليب غير مسبقة في ابتكار نماذج نصية مغايرة، يكسر بها الشاعر أفق توقع المتلقي، ويتجسد التجريب عبر مجموعة من الوسائط؛ منها ما يتعلق باللغة، وكذلك الموضوع، والفكر، فضلا عن التجريب الفني.

6.1 التجريب اللغوي:

لا يتبع النص الشعري التجريبي أي شكل تقليدي للنظم (مثل الشعر العمودي)، بل يعتمد الشعر الحر الذي يتيح للشاعر فرص أكبر للتعبير المرن وغير مقيد. كما أن اللغة الرمزية والمجازية تجعل القارئ يتفاعل بشكل سلس وشخصي مع القصيدة.

6.2 التجريب الموضوعي:

تظهر تجربة الشاعر في استكشاف المواضيع الكونية؛ مثل: الخراب، والزمن، والطبيعة، والموت، والبحث عن الحقيقة. والجمع بين مختلف التناقضات؛ خاصة الجمال والخراب، وكذلك الحركة والسكون، والحياة والموت، واللذة والألم.

3.6 التجريب الفكري:

مارس الشاعر تجريب الأفكار في نظم القصيدة؛ وذلك بواسطة طرح أسئلة فلسفية كبيرة حول الحياة، والموت، والوجود، والحقيقة، وكذلك الزمن في تصوره العادي، والزمن المتعدد الطبقات؛ الذي ينتقل بين الماضي، والحاضر، والمستقبل.

4.6 التجريب الفني:

خرج الشاعر بنصه عن البناء التقليدي المألوف؛ حيث اعتمد الفقرات قصيرة والمتفاوتة من حيث الطول، فضلا عن توظيف الصور الشعرية الجديدة، التي تثير القراءة وتدفعها في اتجاه التعدد والانفتاح، ومن ذلك قوله: "أشبك أصابعي في السديم الأغبر".

5.6 تجريب التناقضات:

يعدّ التجريب في توظيف التناقضات شكلا جماليا من أشكال التجريب الشعري المعاصر، الذي اشتغل فيه الشاعر على الجمع بين الثنائيات المتعارضة؛ مثل: الجمال والخراب، والحركة والسكون، والإنسان والكون، وتسيط الضوء على تفاصيلها المتضادة تكثيفا للدلالات الشعرية القريبة.

6.6 تجريب الزمن المتعدد الطبقات:

مارس الشاعر الانتقال بين الأزمنة المختلفة بطريقة تجريبية؛ حين قال: "مياه حبلت ذات عصر بالأساطير والأبجديات..." → الماضي البعيد. "لكن!، من ينتفض الآن في أعماقي ليسأل عن عرش ذهب في الذكرى؟" → الحاضر القريب.

7.6 تجريب العلاقة بين الإنسان والكون:

حاول الشاعر في تجريبه الصلة بين الإنسان والكون ذات البعد الفلسفي العميق؛ تقديم الإنسان كجزء من الكون، ليس مجرد عنصر منفصل عنه؛ وذلك حين وصفه بالقول: "مذنب خارج الفلك أخترق المسافات الباقية..."

8.6 تجريب الأسئلة المفتوحة:

طرح الشاعر عدة أسئلة دون الإجابة عنها؛ لتحفيز القارئ، وحثّه على التأمل؛ ومن ذلك قوله: "هل أرفع راية الرماد، وأعزف للجنان؟" وهي من الأسئلة الاستنكارية الدالة على موقف الإنسان الراض لواقعه المرير، والمتطلع إلى فكرة التغيير.

9.6 تجريب الصور الشعرية الغريبة:

ظهر هذا النوع من التجريب لدى الشاعر بواسطة استخدام صور غير تقليدية، في رسم المشاهد الشعرية؛ مثل قوله: "أشبك أصابعي في السديم الأغبر"، وكذلك قوله: "أششم شياطات الأمكنة ودخانات الجيف".

7. خاتمة:

يُعد النص الشعري موضوع البحث نموذجاً بارزاً للتجريب في الشعر العربي الحديث؛ حيث قام على الجمع بين اللغة الرمزية، والصور الغامضة، والأسئلة الفلسفية العميقة، وقد تبين لنا من تحليل العناصر الشعرية المختلفة؛ متمثلة في (الإيقاع، والرمزية، والتجريب) أنّ النص قد استطاع إلى حد كبير التعبير عن روح البحث المستمرة عن الحقيقة والمعنى في الحياة، وهذا ما رفع المنجز الشعري إلى مصاف التجريب الفني المثير للقراءة والتأمل.

8. الهوامش:

¹ - سوزان برنارد، قصيدة النثر من بودلير إلى أيا مانا، تر. زبير مجيد مغامس، مر. علي جواد الطاهر، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، العراق، ط1، 1993، ص142.

² - روزغريب، تمهيد في النقد الحديث، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط2، 1971، ص107.

³ - عثمان لوصيف، مكاشفات في مشهد الموت، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2021، ص9-12.

⁴ - نفسه، ص11.

⁵ - نفسه، ص11.

⁶ - نفسه، ص11.

⁷ - فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1984، ص41. نقلا عن:

W.Y Tindal. The Literarysymbol. P12.

⁸ - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي قضاياه وظواهره الفنية، دار الفكر العربي، ط3، (د.ت.ط)، ص198-199.

⁹ - أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1979، ص10.

¹⁰ - نفسه، ص10-11.

¹¹ - عثمان لوصيف، ص10.

¹² - صلاح فضل، لذة التجريب الروائي، مكتبة الساعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2005، ص03.

9. قائمة المراجع:

1. عثمان لوصيف، مكاشفات في مشهد الموت، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2021.
2. صلاح فضل، لذة التجريب الروائي، مكتبة الساعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2005.
3. أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1979.
4. فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1984.
5. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي قضاياه وظواهره الفنية، دار الفكر العربي، ط3، (د.ت.ط).
6. سوزان برنارد، قصيدة النثر من بودلير إلى أيا مانا، تر. زبير مجيد مغامس، مر. علي جواد الطاهر، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، العراق، ط1، 1993.
7. روزغريب، تمهيد في النقد الحديث، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط2، 1971.